

رموز في رباب الشام في الفرد (الثامن عشر الهجري)

اردان حلة الاحسان

في الرحلة إلى جبل لبنان^(١)

لمصطفى البكري الصديقي

(١٠٩٩-١١٦٣-١٦٨٧-١٧٤٨م)

للاستاذ أحمد صالح الخالدي

—

لا شك أن الدافع لرحلة الشيخ هذه وغيرها من الرحلات، ولتقلته المستمرة في المدن والقرى، إنما كان حرصه على نشر الطريقة الخلوئية والاتصال بأعوانه ومريديه. ولقد كان الشيخ مكشوراً في النظم والذثر، بل إنه ليؤلف الكتاب أو الرسالة في أيه مناسبة. ولا شك أن نظمه ونثره يمثلان عصره وأصدق التمثيل لقد امتاز هذا القرن بالسجع، والركاكة في الأسلوب، كما يتبين من دراسة رجال هذا القرن في كتاب أعيان القرن الثاني عشر للرادى.

ولقد انتقل الشيخ من دمشق إلى القدس وتزوج فيها وتلمذ على شيوخها وامتد نفوذه فيما بعد إلى جميع أنحاء فلسطين، وإلى سوريا بل وحتى إلى مصر والعراق.

وقد ساهم في الحياة العامة في فلسطين فمهر الحرم القدسي خلوة، وبثراً، وحاول أن يصلح البرافثة شيوخ بني زيد وكانوا قد اختلفوا فيما بينهم، كما شوق الحاج حسن بن مقلد الجيوش لزراعة الأشجار المثمرة حول قبة الصحابي مرافقة في (كور) من أعمال قضاء بني صعب.

ويستدل من رحلته هذه أن حالة الأمن لم تكن مرضية في زمنه، فقد جاء ذكر تدمى الأعراب على القوافل بين الخليل وعـ.قلان، كما تدموا على الشيخ القافلاني مفتي الديار القدسية، فسلبوه بعض ثيابه وما كان يحمل من الكتب.

ويلاحظ أيضاً أن الشيخ كان يغير طرق سيره، فبدلاً من

أن يسلك الجادة السلطانية بين القدس والخليل ماراً ببرك سليمان، فير طريقه إلى بني حسن وهي ناحية إلى الجنوب الغربي من القدس مخافة قطاع الطريق.

ويستدل من وصف الشيخ لبعض المدن التي اجتازها أن (حاصبية) كانت حينذاك قرية يقطنها اللروز وهي الآن مدينة كما أن مدينة حيفا التي بلغ عدد سكانها الآن مئة وخمسين ألفاً، لم تكن سوى قلعة حصينة على ساحل البحر المتوسط. ووصفه هذا لحيفا ينطبق على وصف معجم البلدان، بعض الشيء. فقد جاء في معجم البلدان (ج ٣ - ص ٢٨٢): «حيفا غير ممدود، حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا، لم يزل في أيدي المسلمين إلى أن تغلب عليه كنفدرى الذي ملك بيت المقدس سنة (٤٩٤ هـ) وبقي في أيديهم إلى أن فتحه صلاح الدين في سنة (٥٧٣ هـ) وخربه». ووصف لنا الشيخ زيارته أكثر من مرة للخليل، ويذكر كرومها، ويستدل من هذا أنها كانت محاطة بكروم العنب وهو حالها اليوم.

ويذكر الشيخ فيما يذكر أن الأمر السلطاني صدر باسم والدته لتعمير قناة الماء إلى الحرم القدسي. وهذه القناة ليست حديثة فقد جاء في الأنس الجليل ج ٢ - ص ٣٨٧ عند ذكر الأمير تنكز الناصري نائب دولة المماليك في الشام وهو الذي عمر قناة الماء الواصلة إلى القدس، وكان ابتداء عمارتها في شوال سنة (٧٢٧ هـ) ووصلت إلى القدس ودخلت إلى وسط المسجد الأقصى في أواخر ربيع الأول سنة (٧٢٨ هـ) وعمل البركة الرخام بين الصخرة والأقصى، وتعرف هذه الآن بالكأس، ويظهر أن هذه القناة خربت، فعمرت مدة ثانية كما يذكر الشيخ. وهذه القناة تمتد من برك سليمان إلى الحرم وتسيل بالانسحاق لملو برك سليمان عن الحرم القدسي، وهي من حجر.

والظاهر أن الشيخ كان أباً عطوفاً، فقد مر كثيراً بابنته (علما) وحزن حزناً عميقاً عند وفاتها وهي لا تزال طفلة، وقد رزق ولده محمد كمال الدين في القدس. ولقد كان الشيخ يزور مقام (علي بن عليل) وهو من نسل عمر بن الخطاب، ويمرر بسيدنا علي بن عليم عند العامة، وله موسم يقصده الزوار كل عام. ويسجل الشيخ بألم ظاهر في هذه الرحلة وفاة قطبين عظيمين

(١) مطروحة في خزنة الكتب الخالدية

إن الله تعالى اختص بمض الأمانة والأشخاص ، وقد طرق السمع ، من أهل المعرفة والسمع ، أن لهذا الجبل ، الذي يبنى الجبل ، حلاظا هر الرجحان ، وإنسا بأهر الميزان ، وأن كل من حوله ممن له قدم في الولاية يأتيه رازرأولو بالرحمانية وهذه على فضيلته آية ، وكان كثيراً ما يجول في الخاطر ، ويتكرر وروده على الضمير الخاطر ، أن يشد الشيخ الرجل على عيس السرى إليه ، لعله يحظى من بر أهله ومما لديه ، ولكن الأقدار كانت تمنع . ولما آن الأوان ، قصد البقاع العزيز . ملتجئاً لحي المهيمن الملك العزيز ، وبمسد ما ودع الخلان والأصحاب والإخوان والأخذان يقول :

« وتوجهت مستمتيناً بالديان ، نحو الديماس ، مع رفقة حسان يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة عام أربعين ومائة وألف (١٧٠٧ م) . وقصدت حى الصالحية ، وقرأت الفاتحة لسكانها أهل الرتب الفلاحية ، ثم صعدت إلى جبل قاسيون ، وحصلت نفحة إقبال من هداة فتحه وتجاوزت فبة الديار الشائقة ، التي تحت قبة النصر الشاهقة . ومن رافقنا لهذه الزيارة والقدس الفياح ، الصديق الشيخ عبد القادر المرصلي ثم البغدادي السباح ، المنتقى للمصاية السهروردية المتصلة أنسابهم بالأمة الصديقية ، والأخ السيد محمد السلفيتي المباسي ، المحب الآسي والصديق للمواسي ، أول آخذ للطريق في الخطرة الأولى ، وقد ذكرته في الحمرة المحمية في الرحلة القدسية ، وفي غيرها من الرحلات الأنسية ، وكان الأخ أكبر . مساعد ومعين على إظهار الطريق في الديار القدسية ، وكنت قبل هذا التوجه الطويل المسافة أذنت له بلبس الكسوة والإرشاد لطلاب الإضافة . ومن صحبني أيضاً زوج الوالدة ، لا برحت في الجنان خالدة ، والأخ من الرضاع ، الحاج إبراهيم جميل الأوضاع ، المستقيم على قدم الحب من الصغر ، كأنما نقش على قواده نقش الحجر ، فلم يتغير بتوالي الزمان ، لأنه ذوباع فيه طويل ، قد عرف ابن الطويل في النسب . ومن صحبني أيضاً الأخ الواعي ، الشيخ محمد البقاعي ، خفيف الحركة ، تقيل البركة ، فجملته للنسبة الوطنية دليل الركاب ، وسرماً تتلى بنهود وجوه أولئك الأحباب . ولما أطلنا وادي بردا [بردى] الظليل ، قابلنا بعمده أول تقيل هاويل الذليل ، قرأنا له الفاتحة .

تلمذ عليهما ، وكان يحترمهما أبلغ احترام أولهما الشيخ عبد النبي النابلسي الدمشقي القطب الكبير وصاحب الرحلة إلى القدس سنة (١١٠١ هـ) وبمعتبر الشيخ من أخلص تلاميذه ، والثاني الشيخ محمد الخليل مفتي الشافعية في الديار القدسية ، والصالح العمراني ، والمؤلف القطب ، وهو من أبرز رجال القرن الثاني عشر في فلسطين .

وفي الرحلة فوائد أخرى على رغم ركافة الأسلوب ، وتكرار السجع الملل ، وانصراف الشيخ إلى نزعته التصوفية القوية ، وفيها بعض مملومات عن أصل سكان (الطيبة) من أعمال طولكرم ، ونسب البراغثة في جبل القدس ، وعن وقف قرية (طابور) في بني زيد للحرمين الشريفين ، وما إلى ذلك .

ومن لطائف المصادقات أن يحضر إلى الديار القدسية الرحالة المصري الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي ، سنة (١١٤٣ هـ) وينزل عند الشيخ ، ويأخذ عنه الطريق ثم يصف لنا لقاءه الشيخ في زحلته المخطوطة ، « سوانح الأنس في رحلتى لوادي القدس » وقد أثبتنا رأى اللقيمي في الشيخ البكري .

وخلاصة القول أن هذه الرحلة المخطوطة التي لم ترد مملوماتنا كثيراً عن لبنان الجنوبي ، شيقة برغم جميع مآخذها ، فإنها تمثل القرن الثاني عشر ، وهو قرن تنقمتنا عنه المملومات والمصادر الوافية ، فتصف لنا بعض نواحي الحياة الفكرية ، وبعض أحوال البلاد القدسية وعمرانها ، ورجالها ولو كان أكثر من اجتمع به الشيخ من رجال التصوف والزهد .

ويظهر أن اللاريا (الحى الربمية) أصابت الشيخ لترده على مقام سيدنا على ، وهي منطقة موبوءة بهذا المرض إلى عهد قريب ، فضايقتة وأنهمكته ، وحاول أن يتلخص منها بالدعاء والاتجاه إلى مقام سيدي داود ا

ونحن بمسد ذلك نترك للشيخ أن يتكلم ، إذ أنه بعد أن ختم الرحلة الرومية وبدأ في المراقبة أراد أن يبتدىء برحلة بقاعية لبنانية فأسمها (اردان حلة الإحسان في الرحلة إلى جبل لبنان) فيقول : « اعلم أيها الأخ الواقف على هذه المواقف أن هذا الجبل المعظم البجبل المقصود بالزيارة ، جبل مبارك له خواص عند الخواص أصل الإشارة ، إذ من المعلوم ، لدى أرباب الفهوم والاختصاص ،

وأشدت الدليل قرب الدباس : مرتحلاً بقصيد مفيد الإنباس :
 قد أتينا قرية الدباس زنجي رشف حمرة الإقباس
 ونزلنا بها مع الرفاق (زاوية بني تغلب) وبعد أداء الصلاة الوسطى
 وختام ورد المعر البسام ، ورد كتاب من الصهر المهام الشيخ
 إسماعيل العالم النبيل القدام ، مصدرأ له بأبيات جسام وهي :
 فرقة للحبيب يوم الخميس أوردت في الجنان رعب الخميس
 أهل ودي زاد التلف مني حيث فارقتكم لدى التفليس
 وتوجهنا للبقاع وهو جمع بقعة موضع يقال له بقاع كلب
 قريب من دمشق . قال في الراسد : وبهذا البقاع قبر إلباس
 ولما وصلنا باب وادي القرن أنشدت موالياً :
 لقد قرنا الصفا باليسر أيا قرن لما أتينا صباحاً باب وادي القرن
 ومد عدول الحشا قد غاب ذلك القرن

دام التصاق لي ما بعد نفع القرن
 وجاءني الأخ البقاعي ، شيخ (١) نشره عابق للبشر داعي ،
 فكشفت وأنا على الدابة أسمه ما يجري على القراطاس :
 يا خليلي للبتاع فسيحا تريا مربعا هناك فسيحا
 واسقياني كأس الدمام لديه وانشقاني فيه خزاماً وشيحا
 ولما أشرفت على الجبل ، إذ زال الجبل قلت :
 يا ساكنين السفح من لبنان هيجتو بسناكم أشجانى
 حولتمو قلباً أحب وقالبا فأتيتكم أسمى على أجفاني
 وقد اقتضينا من الدليل العزيز الجليل الأبر ، الأثر ، لأنه
 أسلم ، وما زال يصعد بنا المقاب التي هي صمود للجوزاء بلاسلم ،
 لكن راقها بإمداد من حل فيها للعناية والرعاية والحماية والكفاية
 يسلم ، حتى أتينا قرية نبي الله زريق قلت :

يا نديمي من منام أفيقا عل أن تلتقيا لوصل طريقا
 وانهجنا منهج الحماة وسيرا للمالي كي تنشقوني عييقا
 ثم زرنا في القرية مقاماً فخضر أبي الدباس ، وسبب تعدد
 مقاماته ، شهوده فيها لكثرة تطوراته ، وهذه علامة على حياته ،
 خلافاً لمن دندن بوفاته . والدليل قريب في القرية نقره بسام ،
 أنزلنا لديه فقدم ما قدر عليه من إكرام ، وعزمنا في الصباح أن

بنزل سهل البقاع ، فرأيت مناماً دل على توديع السكان ، من
 ذلك المنزل لمرض حر وعدم إركان ، فأنتيت مع الرفاق إلى تل
 مشرف ، وأهدبت النازلين من عمد وأركان الفوائح ، وقلت :
 يا سراة نحو العزيز الخفير بلفوه - سلام صب حفير (١)
 خبروه بأنني مسنتهم في هواه بحرقه وزفير الخ
 وبعد أن ودعنا المضيف بالأمس ، جزنا إلى الشيخ يعقوب
 المنصوري ، وهذا الذي صنع البركة الإبريزية للملك الرشيد
 نور الدين الشهيد فمسل منها أوقافاً على عد عين تورا ويزيد ،
 ومنها قاعة الفقراء في الربوة بين تورا ويزيد ، وزرنا أولاد شيخنا
 الجيلاني ، ثم تقدم بي الدليل بعد الزيارة إلى قرية (كوكب)
 قاصداً فيها صلة رحم وقرب أحباب ، فأشدته مرتجلاً لساغيم
 الكدر اجبلي :

إنني في سفرتي هذي التي فاق محياها سراجاً كوكبا
 لم أزل أرتق الملا مع رقتي ولهذا قد رقيتنا كوكبا
 وسرنا إلى (الذنبة) ، بهمة طيبة الحضور والغبية ، ولما
 امتلأت بالسرور العيبة ، ففتت بالجور الوفور الجيبة ، قصدنا
 يجمعنا قرية (حاصبية) فإذا هي قرية كبيرة مملوءة الأكناف
 بالطائفة الدرزية ، ومضينا للخان ونزلنا لديه ، ومنه جدينا السرى
 حتى أتينا قرية (ميس) ، الحاملة أهلها لواء ربيعة لا قيس ،
 الشيمة المائنين بحب الآل أي ميس . وهذه القرية من بلاد
 بشارة فأشدت :

جاء بمن أحب ليلا بشارة مذحللتنا يوماً بأرض بشارة الخ
 وصعدنا محلها العالي ذو الامتناع ، ونزلنا عند صديقنا العالي
 على بقاع ، وأمسكنا لديه معاملاً بكرام ، وسرنا للدير والقاسي (٢)
 بأنس تام ، ونزلنا عند أحبابنا في القاسي ، وحبب لي أن أمدح
 أهل الدير والقاسي ، لأنهم أهل قرب وقراءة كل منهم لا يرى
 تشفيماً فقلت :

إذا رمت أن يسقيك سمان في الدير
 أتح جل الترحال في القاسي والدير الخ
 وأشرت بصالحهم لصالح أكبر أولاد مراد فإنه صالح .

(لها بقية)
 أحمد سامح الخالدي

(١) ممن ذكرهم الشيخ في قصيدته ، شيت ، وإلبيا ، ونوح ،
 وإلباس والنهري ، وإبلون من الأنبياء ! وسبيدي مبار ، والرمان ،
 والحداد ، والمنصوري ، وأولاد الجيلاني .
 (٢) هي قرية دير القاسي من أعمال صند آلان .

(١) الشيخ بالكسر بان منه أصغر الزهر يشبه السذاب في ورقه
 وهو الأرمني ومنه أمر غلبت الرزق وهو التركي ، وكله طيب الرائحة ومنه
 عمر بن يثب في بلاد العرب ترعاه الوائسي .